وبعد ، فإن نوعاً يخرج محمداً وأولى العزم من الرسل والحكماء والصديقين والعلماء والرواد المجاهدين ، جدير بأن يوثق به ويؤمن بقيمته ، فإن مقياس قيم الأنواع هو لبابها وجوهرها ، وثمر الشجر أقل شيء عدداً فيه ، والشوك يكون مع الورد ، والظلام مع النور ، والفساد وسيلة لإدراك الصلاح والحفاوة به .

« ونبلوكم بالشر والخير فتنة » ، فالخير أيضاً فتنة !

هذي طباعُ الناس معروضةً فخالِطُوا العالم أو فارِقُوا !

عبد المنعم خلاف

علوم البلاغة في الجامعة

للأستاذ علي العماري

— ٢ —

تحدثت في المقال السابق عن الأسلوب الذي تدرس به البلاغة العربية في الجامعة ، وعبت أن يكون هـذا الأسلوب العامي الركيك هو الذي يلقى على طلبتها ، وتنقصته بأنه يفسد ذوق التلاميذ ، وبأنه لا يتفق وطبيعة النصوص العربية الفصيحة ، ولا سيما كتاب الله الكريم .

وقد سمعت بعض الاعتراضات على ما كتبت ، فسمعت من يقول إن هذه محاضرات ألقيت على طلبة صغار لم يتعدوا مرحلة التعليم الثانوي إلا منذ قليل ، ولم يشدوا من علوم البلاغة إلا نتفاً يسيرة . ونسي هذا القائل أن طلبة الجامعة تلقوا في المرحلة الثانوية كتباً ذات بال في علوم البلاغة ، وفيها من النصوص العربية الفصيحة العالية ، ومن الأسلوب المهذب الطيب ، ما يهيئهم لأن يتلقوا أسلوباً أرق وأسمح ، وحسبك أن تنظر فيما يدرس في المدارس الثانوية من كتب في هذا الفن لترى أن أسلوبها أرجح وأقوى من هـذا الأسلوب الذي نقلنا مقتطفات منه في المقال السابق ، وحتى لو كان الطلاب لم يتلقوا في المرحلة السابقة شيئاً يذكر لكان لزاماً على أستاذ البلاغة في الجامعة أن يكون مثلا لهم في حسن التعابير ، وجمال اختيارها ، وإذا كان لا بد من أسلوب عامي ، فليكن أسلوباً مهذباً لائقاً . وإن علماء النفس يحدثوننا عن تداعي المعاني ، وعما تلقيه الكلمات من المعاني والظلال في نفوس السامعين ، والأستاذ الخولي مؤمن بهذا ، فهل يستطيع أن يحدثنا عما تحدثه الكلمات من أمثال قوله عن محمد وجميع الأنبياء أنهم (سماة بوستة) أو قوله شارحاً قول الله عز وجل (وما أنت بمسمع من في القبور) : (أنت مش قدام ناس . انت قدام ألواح وبهايم) وماذا تنشره من ظلال ، وماذا تستجلبه من معان في نفوس تلاميذه ؟ وسمعت من يقول إنه لا بأس أن يكون هذا الأسلوب أداة التعليم في الجامعة ، والأسلوب العامي ما دام لم يكتب في كتاب وإنما يلقى في درس في حجرة فلا غبار عليه . وجوابي على هذا أني أتكلم عن تدريس فن البلاغة في الجامعة لا عن تدريس الجغرافيا في المدارس الابتدائيـة ، أما الثالث فيقول : إن اللجوء إلى نقد الأساليب تهرب من نقد الآراء ، وهذا ولا شك جاهل أو متجاهل قيمة الأسلوب في تكوين أذواق المتعلمين بل وفي أخلاقهم وعاداتهم أيضاً . على أني — بحول الله وقوته — ماضٍ في نقـد ما تضمنته مذكرات الأستاذ الخولي في علوم البلاغة من آراء في قواعدها أو فهوم في النصوص الأدبية ، ولنبدأ بمذكراته في علم البيان .

والفكرة المتسلطة عليه في هذا الفن أن يجعل لكل عبارة من عباراته منبعاً لمعان نفسية يجب أن تثيرها في نفس المتكلم أولا ، وفي نفس السامع ثانياً ، وهو لذلك يتكلف العنت ، ويركب الشطط في تخريج النصوص الأدبية . وهو لا يؤمن بالماديات الصرفة في هـذا الفن ، ويكاد ينكر الحسات التي لا تثير معاني نفسية فحين يقول الشاعر مثلا :

تجهز فإما أن تزور ابن ضابىء عميراً ، وإما أن تزور المهلبا

هما خطتا خسف نجاؤك منهما ركوبك حوليا من الثلج أشهبا

لا يرى لهذا التشبيه معنى ، لأن الشاعر لم يزد على أن فضل الفرس في البياض على الثلج دون أن يلاحظ العلاقات المعنوية بين المشبه به والمشبه ؛ فتراه يقرب مثلا حين يتكلم عن أغراض التشبيه « ومنها بيان حاله كما في تشبيه ثوب بآخر في السواد — الخ . هـذه عبارة الخطيب القزويني صاحب الإيضاح . فيعلق عليها الأستاذ قائلا : هذا كلام فارغ ؛ لأن الانسان حين يشبه السواد

يلحظ فيه الانتشار والتغطية والابهام ، أى أثراً نفسياً يقع من رؤية هذا السواد ، وعلى هذا الملحظ يشبه الليل ». لا يا مولانا ، هذا شيء وذاك شيء آخر ، نعم قد يلاحظ المشبه بالسواد المعانى التى يثيرها فى النفس ، ولكن لا بأس أن يلاحظ مشبه آخر مجرد السواد . وليس هذا بالكلام الفارغ ، وهو من أساليب العربية المقبولة ، بل وفى طبائع الناس أيضاً ، فهم لا يزالون يلحقون شيئاً بشيء فى البياض أو الحمرة أو السواد أو ما شاءوا من لون ، ولعله يلفت النظر إلى هذا التهجم الجائر على كلام العالم العلامة الخطيب القزوينى ، ومن معه من علماء البلاغة حين يقول (هذا كلام فارغ) ، ولا شك أن مثل هذا يمحو من أذهان المتعلمين ما لهؤلاء من هيبة وجلال ، وبذلك لا ينتفعون بما كتبوا وألفوا ما داموا يحتقرونهم ويسمعون من أستاذهم هذا التنقص لهم ، والغض منهم .

وقد ذهبت به هذه النظرة الجائرة إلى أن ينكر نوعا من التشبيه قد أطال علماء البلاغة ونقدة الأدب فى امتداحه ، يقول :

« ولا زوردية تزهو بزرقتها بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها فوق قامات ضعفن بها أوائل النار فى أطراف كبريت »

المشبه زهرة البنفسج قائمة على ساقها ، والمشبه به أوائل النار فى أطراف كبريت ، إذا أردنا أن نحلل عملية التشبيه لقلنا إنه شعر للبنفسج بجمال فترجم عنه ، ونحن نفهم أن الجميل قادر أن يلفت معنى وراء وجوده المادى ولكن الشاعر لم يتخط الوجود المادى نظر إليها على أنها زهرة لها حجمها الخاص ولونها الخاص ، وقال كلاما شرح به هذا الوضع المادى (كأوائل النار فى أطراف الكبريت) أولا : ما هو الشيء المعنوى الذى لفتت إليه الزهرة الجميلة ؟ لا شيء . زهرة البنفسج هذه يمكن أن نحس أمامها بنوع من الانصراف عن التنبه واليقظة ، فاذا شبهتها بإنسان حالم تكون قد تذوقت للون طعما خاصاً من طعوم الحياة ؛ وبذلك تكون المادة قد أفلحت فى إيجاد المعنى — أما وصف اللون بلون آخر فلا شيء — ثانياً : نلاحظ أن الشاعر نقلنا من جو فسيح إلى جو خانق فليست هنا قوة فى الإحضار ، وإنما هى غفلة وسوء تصرف »

قد يبدو هذا الكلام مقنعاً وراثعاً لأول وهلة ، ولكن يجب أن نتذكر حقيقتين :

الأولى — أنه يدرس التشبيه ؛ ومعنى ذلك أن يقف عند تشبيه الشاعر . هل أصاب أو أخطأ فى إلحاق هذا اللون بذاك . أما أن الشاعر لم يلتفت إلى ما يهيجه البنفسج من المعانى فى النفس والتفت إلى شيء مادى بحت فهذا لا دخل له فى صحة التشبيه أو فساده .

الثانية — أن البيان يبحث عن الأساليب الفنية التى تؤدى بها المعانى ، وما دام يبحث عن الفن فهو يجده فى المعانى البحتة ويجده كذلك فى الماديات البحتة ، وليس أحدهما بأولى من الآخر فى إبراز الفن البيانى فيه ، وعلى ذلك فهم علماء البلاغة ما ورد من هذه الأمثلة . ولعلنا نأتى بالقول الفصل حين نسوق ما قاله إمام البلاغيين الشيخ عبد القاهر الجرجانى فى هذا الموضوع بعينه: « وهكذا إذا استقريت وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد كانت إلى النفوس أعجب ، وكانت النفوس لها أطرب ، وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب ، وذلك موضع الاستحسان ومكان الاستظراف ، والمثير للدفين من الارتياح ، والمتألف للنافر من المسرة ، أنك ترى بها الشيئين مثلين متباينين ، ومؤتلفين مختلفين ، ولذلك تجد تشبيه البنفسج فى قوله : ولا زرودية ... الخ أغرب وأعجب ، وأحق بالولوع ، وأجدر من تشبيه النرجس بمداهن در حشوهن عقيق ؛ لأنه إذ ذاك مشبه لنبات غض برف ، وأوراق رطبة ترى الماء منها يشف ، بلهب نار فى جسم مستول عليه اليبس ، وباد فيه الكلف ، ومبنى الطباع وموضوع الجبلة على أن الشيء إذا ظهر من مكان لم يعهد ظهوره منه ، وخرج من موضع ليس بمعدن له ، كانت صبابة النفوس به أكثر ، وكان بالشغف منها أجدر » . وليس بعد كلام الشيخ كلام ، ولكن لعل شيخ الجامعة يتهمه بفساد الذوق ، ولو أنه أعاد وأبدا ، واحتج بنظرية نفسية كان الأستاذ ينكر أن المتقدمين تنبهوا لمثلها ، والأمر أوضح من أن يشرح ، فالشاعر أراد أن يبين زرقة البنفسجة التى تفخر بها على اليواقيت الحمر ففكر فى شبيه لهذه الزرقة ، وهنا يتفاضل الشعراء فمنهم من يكون قوى اللفتة فسرعان ما يقع على شبيه ولو كان نادر الحضور فى الذهن ، ومن هنا تجيء طرافته وجدته ، ومنهم البليد الذى لا يصل إلى الشبيه إلا بعد حين وربما لا يصل ، وإذا كان من